النَّقَائِصُ العِلْمِيَّة

عبد الله بن سليمان العبدالله (ذو المعالي)

<TD< tr/>

غايات الكمال مَطْلَبٌ نفيس لدى العقلاء ، و مرمىً عالٍ في سيرة الحكماء .

و لا يعتري ذلك أدنى شكٍّ ، و لا قيدٌ من ريب ، و لكن أبى الله الكمال إلا لكتابه ، و اعترى الخلل كل مخلوقاته ، و تسلط النقص على كيانات الكمالات .

و من تلك الغايات المحمودة ، و المرامي المقصودة (العلم) الشريف ، و ما حواه من فخر لطيف ، فقد اعترته شوائب النقص ، و خالجته آفات الكمال .

و ليس ذاك النَّقْصُ من ذات العلم ، بل هو من سالكيه ، و طارقي أبوابه .

و لأهمية العلم ، و سُمُوِّ غايته جرى اليراع مقيِّداً آفاتٍ تختلج كيانه ، و سطر الحبر ذلك مظهراً بيانه .

و لقد كشف عن ذلك مُبَيِّنَاً آفات العلم و نقائصه العلامة محمد البشير الإبراهيمي _ رحمه الله تعالى _ حيث قال : (و إن من نقائصنا المتصلة بحالتنا العلمية الحاضرة ثلاثاً لا كمال معها ، و من المؤسف أن ناشئتنا العلمية المستشرفة إلى الكمال لا تفكر في السلبي منها و لا الإيجابي .

هذه النقائصُ الثلاث هي :

- ضعف الميل إلى التَّخَصُّص .
- ضعف الميل إلى الابتكار .
- الكسلُ عن المُطَالَعَة .

و إذا كانت الأوليان مُتعسرتين لفقد دواعيهما ؛ فإن الثالثة أقرب إلى

الإمكان) أهـ

[آثار الإبراهيمي : 1/154] .

و كما ترى أن هذه النقائص هي ركائزُ في العلم ، و أصول في الثقافة ، و تخلُّفُها يعني الإخلال الكبير في ديمومة الإنتاج الثقافي العلمي .

و إلى بيانٍ شافٍ كافٍ لهذه النقائص .

أولاً ضَعْفُ الميلِ إلى التخصُّص .

و ضَعْفُ الميل إلى التَّخَصُّص آفةٌ أدركت فئاماً من طُلّاب العلوم ، و لابد من النظر إلى هذه النقيصة من خلال خمسة محاور :

الأول : في معنى (التَّخصُّص) .

يُعْرَفُ (التَّخصُّصُ) عند أهله بأنه : اشتغالُ رَجلٍ بعلمٍ من العلوم ، و معرفته بدقائقهِ ، و إلمامه بمباحثه .

و كما ترى أن هذا التعريف لـ (التَّخصُّص) في أرض العمل مُغْفَلٌ مُهْمَلٌ .

الثاني : أقسام الناس بالنسبةِ لـ (التَّخصُّص) .

طُلَّابُ العلوم كثيرون ، و أهل (التَّخصُّص) قليلون ، و هم فيما بينهما في تفاوتٍ كبير .

فأقسامُ الطلَّابِ بالنسبة لـ (التَّخصُّص) ثلاثةٌ :

أولها : مِنْ لم يرمِ إلى تخصُّصٍ في علمٍ من العلوم ، بل هو مشتغلٌ في كل علم مُحصِّلاً له ، و لكن دون إتقانٍ و إحكامٍ .

و أُسميهم بـ (المُثقفين) أو (الجمَّاعين) .

ثانيها : مَنْ تخصَّصَ في علمٍ و جَهِلَ علوماً ، و هذه حالُ أكثرِ مُتخصِّصِي زماننا .

ثالثها : مَنْ تخصَّصَ في علمٍ و ألمَّ بالكفايةِ من العلومِ الأخرى ، و هؤلاء أقلُّ من راحلةٍ في إبلٍ ألفٍ .

الثالث زَمَنُ (التَّخصُّص) .

يظن _ غلطاً _ كثيرٌ من طلاب العلوم أن التَّخصُّصَ يكون حين ميلةِ الطالب لعلمٍ من العلوم ، و هذه نظرةٌ خاطئة .

إن (التَّخصُّصَ) نهايةٌ بعد بداية ، و آخرةٌ بعد أولى ، فزمنُ اشتغال الطالب به إنما يكون بعد إلمامه بجملةٍ من العلوم ، و المشاركة بأصولها و رؤوسها .

(و بعدَ المُطالَعَةِ في الجميع _ أي جميع الفنون _ أو الأكثر إجمالاًإن مالَ طبعه إلى فنٍّ عليه أن يقصدَه و لا يَتكلَّف غيره ، فليس كل الناس يصلحون للتَّعلُّم ، و لا كل مَنْ يصلُح للتَّعلُّم يصلح لسائر العلوم ، بل كل مُيَسَّرٌ لما خلقَ له .

و إن كان مَيْلُهُ إلى الفنون على السواء مع موافقة الأسباب ، و مساعدة الأيام ، طَلَبَ التَّبَحُّرَ فيها) . [كَشْفُ الظنون (1/46)] .

و أما سلوك (التَّخصُّص) قبل تحصيل أصول العلم فهو خلَلٌ و غلطٌ ، إذ غالبُ ذلك انتقاءُ ما تميل إليه النَّفْسُ في حال اشتعال فتيلة همتها .

و لذا كانت سيرة العلماءِ الأقدمين على هذا المنوال ، و على هذا الدرب و الطريق .

فلابدَّ من الإلمام بالفنون الأخرى ، و هو المُسَمَّى بـ (التَّفَنُّن) أو (المُشَارَكة) .

و بيانُ ذلك في الآتي :

الرابع : معنى التفنُّن في العلوم .

كثيراً ما تستوقفنا كلمة (المُتَفَنِّنْ) في كتب التراجم و السِّيَر ، و يخالجنا فيها معانٍ لها كِثار ، منها الصائب و أكثره بعيد النَّجْعَةِ .

و أصلُ المعاني التي تخالجنا صحيح ، لكن الحقيقة هي الغائبة .

فحقيقةُ (التَّفنُّن) في العلم هي : (الوقوفُ على كُلِّياتِه التي تشتملُ على جميع أجزائه بالقـوة) . [الهوامل و الشوامل لـ (مسكويه) ، ص 304] .

الخامس : القَدْرُ المطلوب في (التفنُّن) .

ليس المرادُ بـ (التَّفَنُّن) إلا ما بينه (مسكويه) في كلامه الآنف ، و لكن ما القدرُ الذي به يكون تحصيلُ (التَّفَنُّن) في تلك العلوم .

أبانَ عنه (حاجّي خليفة) فقال _ لما عَدَّدَ شرائط التَّحْصِيْل _ : (و منها : أن لا يَدَعَ فناً من فنون العلم إلا و نظرَ فيه نظرَاً يَطَّلِعُ به على غايته و مقصده و طريقته) . [كَشْفُ الظنون (1/46)] .

النَّقِيْصَةُ الثَّانِيَةُ ضَعْفُ المَيْلِ إلى الابْتِكار .

هذه النَّقِيْصةُ من أشهر ما وُجِدَ بين طلاب العلوم ، و للأسف أنه لا يجهل أحدٌ قدرها ، و لكن ليس كلٌّ موفقاً لها .

و الابتكار هو الإبداع ، و معناهما واحد .

و الإبداع من أنفسِ مناقب الذكي ، و من أجلِّ محامده .

و الإبداع أو الابتكارُ سيكون الكلام فيه في نواحٍ عِدَّة :

الأولى : معنى الابتكار .

الابتكار معناه : ابتداع شيءٍ غير مسبوق إليه ، و المعنى _ أشد إيضاحاً _ هو : الاختراعُ لشيء جديد لم يُسْبَقْ إليه .

و من أمثلةِ ذلك علمُ أصولِ الفقه ، فإن الذي اخترعه كعلمٍ مُفْرَدٍ هو الإمام الشافعي . [انظر : البحر المحيط لـ (الزركشي) 1/6] .

و من ذلك أصول الشَّعْرِ و عروضه فإن مُخترِعَهُ هو الخليل بن أحمد الفراهيدي .

و المعنى الثاني : التجديد لعلم اندَرَسَ ، و التجديد له بالتذكير به .

و يَظْهرُ من خلال التعريف له دِقَّته و عِزَّتُه .

الثانية : هل الإبداعُ جِبلِّي أم اكتسابي ؟

يميلُ كثيرٌ من الناس إلى أن الإبداع يأتي مخلوقاً مع الإنسان ، فلا يوجد مبدع إلا وهو مخلوق فيه الإبداع .

و من لم يكن كذلك فليس أهلاًلأن يكون مُبْدِعَاً .

و هذه نظرة آفنة ، و رؤية خاطئة ، و إبطالها من أوجه كِثار ليس هذا مَعْرِضُ بسطها .

الثالثة : أهميَّةُ الإبداع .

الكلامُ عن أهميَّةِ الإبداع و (الابتكار) من ثلاثة جوانب :

الأول : ما سبقَ أن قُرِّرَ في معناه تظهرُ أهميته .

الثاني : الفضائل الواردة في العلم تنطبق عليه إذ هو مرتبةٌ من العلم .

الثالث : مرتبةُ الإبداع مرتبةٌ عاليةٌ لا يَصِلُها إلا الخُلَّصُ من الرجال المؤهلين لها .

الرابعة : الطُرُقُ المُوْصِلَةُ إلى الإبداع .

لـ (الإبداع) طُرُقٌ تُوْصِلُ إليه ، و لا يَتأتَّى الوصولُ إلى (الإبداع) إلا بها و من خلالها :

الطريقُ الأولى : الآلة التي بها الإدراك و التحصيلُ ، و هي (العقل) .

و هذه الآلة شيئان :

الأول : الحفظُ .

الثاني : الفهم .

يقولُ شيخُ الإسلام : (العلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم) [اقتضاءُ الصراط المستقيم 1/160] .

الطريقُ الثانية : استيعابُ المسائل التي تُوْصِلُ إلى الإبداع .

فإن (الإبداع) في أي فنٍّ لا يكون الوصول إليه إلا بعد أن يَسْتَوعِبَ الشخصُ أصول و مسائل ذاك الفن .

و معلومٌ أنه لا يكون (الإبداع) إلا على أصولٍ من العلم يُعْتَمَدُ عليها عند أهل الفن و العلم .

و خاطئةٌ طريقةُ البعضِ حين يدَّعي (الإبداع) في علمٍ من العلوم و هو لم يَسْتَوْعِبْ مسائله ، بل أصول العلم .

الطريقُ الثَّالثةُ : مَعْرِفَةُ حقيقةُ (الإبداع) .

و قد سبقَ تقريرُ ذلك فيما مضى .

الخامِسَةُ : أخلاقياتُ (الإبداع) .

لابدَّ أن يتمتع (المُبْدِعُ) في (إبداعه) بأخلاقياتٍ مهمة لابُدَّ من مُراعاتها :

الأولى : أن يَعْلَمَ أن كلَّ شيءٍ من الله _ تعالى _ .

فإن كثيراً ممن يَظُنُّوْنَ أنهم (مبدعون) في العلوم يكون لديهم شعورٌ بالخروج عن قدَرِ الله _ تعالى _ ، و يظنون أن ما أصابوه من (إبداع) إنما هو من تلقاء جهدِهِمْ و عقولهم .

و هذا تَلْحَظُه في كثيرين من كُتَّابِ هذا الزمان _ و الله المستعان _ ، و قدْ حصلَ هذا لـ (ابن سينا) فإنه لما حصَّلَ علوماً و أبدع فيها لَحِقَهُ الطغيان فطغى ، و مثله (ابن الراوندي) .

الثانيةُ : عَزْوُ المَعْلُوْمَةِ إلى أهلها .

فإنَّ بركةَ العلم في عَزْوِهِ لأهله ، إذ هو نالَ طرفاً مُؤَصِّلاً لـ (الإبداع) لديه من كلامِ مَنْ سَبَقَهُ من السابقين له في العلم و الفضل .

و كان هذا منهجاً مسلوكاً لدى العلماء النبلاء كـ (أبي عبيد القاسم بن سلاَّم) و (السيوطي) ... .

الثَّالِثَةُ : المَجِيءُ بالأمور على وجهها .

و ذلك في ناحيتين :

الأولى : في آداب الكتابَة .

الثانية : في آداب التأليف .

و يُنْظَرُ : علامات الترقيم لـ (أحمد باشا) ، و صياغةُ البحث العلمي لـ (عبدالوهاب أبو سليمان) .

السادِسَةُ : العلوم التي يُبْدَعُ فيها .

العلومُ التي يُحْرَصُ على (الإبداع) فيها نوعان :

الأول : العلم النافع ، و نَفْعِيَةُ العلوم من جهتين :

الأولى : المضمون .

الثانية : الثمارُ و النتائجُ .

الثاني : العلم المُحْتَاجُ إليهِ بِكَثْرَةٍ .

النَّقِيْصَةُ الثَّالِثَةً : الكَسَلُ عن المُطالَعة .

آلَةُ العالِمِ كُتُبُهُ ، و عُمُدُ تَحْصِيْلِه كَرَارِيْسُ العلم لديهِ ، و على مَدَى حِرْصِهِ عَلَيْها يكون شأنُ تحصيلِه ، و بِقِلَّة إهمالها يكونُ ضَعْفُ تَحْصِليه ، و هي مُكَوِّنَةِ علم الرجل ، و مُنْضِجَة فكره .

و بها تمدَّح العلماء ، و بفضلها ترنحوا .

و لَقَدْ بُلِيْنَا في هذا الزمان بِقِلَّة المُطَّلِعِيْن على الكُتُبِ ، بل بُلِيْنَا بِكثْرَةِ الكُتُبِ التي تَتَّسِمُ بـ (الغُثُوْثَة) ، و لأجلِ ذا كان الانصرافُ عن المُطَالَعة .

و المُطَالَعةُ إذ كانت بذا المُقام ، و تِيْكَ المكانة فإنه لابُدَّ من إضاءةٍ حول نُقْصَانِها في صَفٍّ من اشْتَغَلَ في العلم طِلَبَاً و تَعْلِيْماً _ ، فأقولُ و بربي استعانتي ، و عليه اتّكالِي :

إن الكلامَ على (المُطَالَعةُ) سيكون من خلالِ ما يأتي :

الأَوَّلُ : في الأسبابِ المانِعَةِ من المُطالَعة .

لمْ يَكُن انصرافُ طلَّابِ العلم عن المُطالَعة ، و الاهتمام بها إلا من أسبابٍ حَفَّتْ بها ، و جملتُهَا قسمان :

الأول : أسبابٌ في المُطالِع .

إن أهمَّ الأسباب المانِعَةِ من (المُطالَعة) هي ما كان ورودها مِنْ قِبَلِ

(المُطالِع) ، و إليك طَرَفاً منها :

الأولُ : ضَعْفُ الهمةِ في (المُطَالَعة) .

الثاني : عَدَمُ استشعارِ أهميتها .

الثالث : الجَهْلُ بطرائق (المُطالَعة) ، و هما طريقتان :

الأولى : المنهجية في (المُطَالَعة) .

فترى بعضاً من القوم يَشْرَعُ في قراءةِ ما وقع في يده من الكتب ، مُهْمِلاً بذلك شأنه و حاله مع الكتابِ المُطالَع .

و (المُطالَعةُ) النافعةُ هي ما كان فيها أمران :

الأول : التناسُبُ بين الكتاب و المُطالِع ، و يندرجُ في هذا شيئان :

أولها : التناسب في العقل و الفهم ، فلا يكون في فنٍّ لا يفهمُ أصوله .

ثانيها : التناسبُ في اللغة و العبارة ، فلا يكون الكتابُ ذا لُغَةٍ أكبر من القاريء .

الثاني : يُسْرُ القراءة فيه ، و هذا فيه أمور :

أولها : اليُسْرُ من جهة حُسنِ الطباعة و الإخراج .

ثانيها : اليُسْرُ من جهة المعلومة فيه و اتفاقها مع فهم القاريء .

ثالثها : اليُسْرُ من جهة الزمان و المكان .

فهذَانِ لُبُّ (المُطالَعةُ) النَّافِعة ، و بفقدِهما يكون فُقْدانُ المَنْفَعة .

الثَّانِيَةُ : إهمالُ آداب (المُطَالَعة) و هي تدُوْرُ في محورين :

الأول جِلْسَةُ (المُطالِع) .

الثاني : أدَبُ الكتابِ .

الثاني : أسبابٌ في المُطالَع (الكتاب) و هي ثمانيةٌ :

أولها : إسْقاطُ الألفاظ من الكلام .

ثانيها : زيادةُ ألفاظٍ في الكلام .

ثالثُها : إسقاطُ أحرُفٍ من كَلِمَةٍ .

رابعها : زيادةُ أحرُفٍ في كلمةٍ .

خامسُها وَصْلُ حَرْفٍ مفصولٍ ، أو فَصْلُ حَرْفٍ موصولٍ .

سادسها :تَغييرُ أشكالِ الحروف بأشباهها كـكتابةِ (الحاءِ) على شكْلِ (الباء) .

سابعها : العُدُوْلُ عن الأشكالِ الصحيحة للحروف كَتَصِيِيْرِ (العيْنِ) كـ (الفاء) في حال الوصل ، أو كـ (الحاء) في حال الفصل .

ثامنها : إغْفَالُ (النَّقْطِ) و (الإعْجَام) .

(النَّقطُ)وَضْعُ النُّقَط .

(الإعْجام)تَشْكيلُ الكلمة بحركاتها .

(انظر : أدبُ الدنيا و الدين [104_ 107]تَحْقِيْقُ : السَّقا)

الثاني : أقسامُ المُطَالَعةِ :
الأول :القراءة التأصيلية : و هي القراءة التي يعتمد فيها على التركيز و التمعن ، و هي في نوعين من الكتب :
1- شروح المتون : فإن التركيز عليها حال قراءتها من مطالب التأصيل و التأسيس ، و بها يكون الطالب على إلمام كبير بمقاصد المتن .
2- كتب العلم (الشرعي) و هي التي يكون فيها التحصيل العلمي ، مثل كتب : الاعتقاد ، الفقه ، الحديث ، الأصول ، المصطلح ، النحو ....
الثاني : القراءة الجردية : و هي تعني أن هناك كتباً تقرأ قراءة فيها نوع من

التركيز و التفهم ، و لا تحتاج الى إعمال الفكر و العقل في عباراتها ، و هي في نوعين من الكتب :
1- المطولات : و هي الكتب ذات المجلدات الكثيرة ، و هي لا تستدعي التوقف عندها و التفكر لمعانيها ، و غنما تقرأ لبحث ، أو غيره من الحاجات . مع أن المتعيِّن على طالب العلم أن يقرأ بها و لكن بعد إدراكه أصول العلم .
2- كتب التكميل العلمي : و مرادي بالتكميل العلمي : هو تحصيل الطالب علماً ليس أساساً في تكوينه علمياً و تأصيله فيه ، بل هو من مكملات ثقافته و علمه .
و علومه : التأريخ ، التراجم ، الأدب ، اللغة ...
الثالث : القراءة الموسمية : و هي القراة التي تكون في مناسبات و أوقات ، و هي نوعان :
1- قراءة في المواسم العبادية : كقراءة كتب الحج قبل الحج ، و الصيام قبل الصيام ، و النكاح قبل النكاح ، و البيوع قبل البيع و الشراء .
2- القراءة في أحكام النوازل : و هي القراءة في الكتب التي ألفت في أزمنة من أزمنة المسلمين التي حلت فيهم نازلة و كارثة كغزوة أشكلت عليهم ، و هكذا .

و بِهَذا أكون قد أوقفت اليراعة عن الرَّقْمِ ، و اللسان عن البَوْحِ بالكَلِم ، آملاً من الله العليم ، أن يَعُمَّني بفضله العميم .
و صلَّى الله على نبينا محمد و على آلهِ و صحبه .